تناقضات المنهج الاستعماري عبر التاريخ

إعداد

الأستاذ المساعد الدكتور أحمد حمو مزعل

الأستاذ المساعد بكلية اللغات

جامعة المدينة العالمية – ماليزيا

الحقيقة تكمن في أن سياسة أوربا الاستعمارية لا يمكن إلا أن تقود إلى خراب أوروبا نفسها، وإذا لم تتنبه أوربا إلى ما تفعله فإنها سوف تقع في الهاوية بسبب الفراغ الذي أوجدته حول نفسها.

ايمي سيزر

من كتاب (مقدمة في المنهج الاستعماري)

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى تبيان حقيقة أن الحملات الاستعمارية -ماضيًا وحاضرًا- كانت قد ساهمت- وتسهم- وبشكل جوهري ليس فقط في إضعاف واستنزاف قدرات القوى التي تبنت المشروع الاستعماري؛ وإنما أيضًا إلى وخلقت حالة من التخبط واللااستقرار المستعمِر، هذه الحالة أضعفت وشتتت قوته، وعكست معادلة القوة لصالح الشعوب المستعمَرة.

إن الممارسات العدوانية واللجوء إلى العنف المفرط وعمليات الإبادة التي قام بها المستعمِر ضد السكان المحليين ما هي إلا دليل على عدم استقرار الأول وخوفه من الثاني؛ لأن الأول يدرك تمامًا حجم الخطر المحدق به والغضب الذي يعتمل في صدور السكان المحليين ضده، وعليه سار المستعمِر مصابًا بهوس إنشاء خطوط الحماية والأسوار التي تبعده عن المستعمَر لدرجة جعلته يعيش في عزلة تامة وخانقة، ولم يعد بوسعه رؤية حقيقة ما يجري في نفس المستعمَر من غضب ورغبة في الانتقام.

وفي الواقع لم يكن وجود هذه الأسوار والخطوط الدفاعية التي أوجدها المستعمِر بينه وبين الشعوب يوفر له الشعور بالأمان والطمأنينة، وإنما على العكس تمامًا حيث كان وجودها تجسيدًا مستمرًا وملموسًا لصورة الخطر الذي يشعر به والذي قد ينفجر في أية لحظة، وعليه اقترن وجود المستعمِر بالأرض التي احتلها بالقوة مع تنامي حالته العصابية وتفاقمها وعدم الاستقرار النفسي، وربما حالات الهلوسة والرهاب.

وكلما كان المستعمِر أكثر عدوانيةً وعنفًا في تعامله مع السكان المحليين كلما كان إرهابه أكبر وأكبر وحالته النفسية والعصبية أكثر عطبًا واستعدادًا للانهيار الذاتي.

المقدمة:

ظهر الاستعمار الأوربي نتيجة دوافع اقتصادية بحتة، دفعت جيوش البلدان التي تبنت المشروع الاستعماري إلى الاندفاع لمناطق عديدة من العالم بحثًا عن المكاسب المادية من خلال الاستيلاء على أراضي الدول الأخرى وجزرها ومصادرة مواردها ونهب خيراتها.

وبدأت هذه البلدان بتنفيذ مشروعها الاستعماري بالإبحار بسفنها إلى قارات أخرى بهدف التوسع والسيطرة على أراضٍ جديدة لاستغلال مواردها الطبيعية والبشرية لإدامة هذا المشروع وإنجاحه.

ومما لا شك فيه أن قيام القوى الاستعمارية بالاستيلاء على أراضي الدول الأخرى وضمها تحت سيطرتها كان قد زاد من المساحة الجغرافية الواقعة تحت سيطرة هذه القوى، لكنه وسّع أيضًا من دائرة صداماتها، وضاعف عدد خصومها، سواء من السكان المحليين الذين تم مصادرة أراضيهم واستعبادهم أو من القوى الاستعمارية الأخرى التي كانت تتنافس وتتسابق مع بعضها البعض بشكل هستيري من أجل السيطرة على مزيد من الأراضي واستغلال مواردها الطبيعية لنفس الغرض.

وبسبب حالة العداء والتوتر التي خلقتها هذه القوى حول نفسها ومع الآخر –وعلى مر العصور– بات من المعروف أن جميع هذه القوى أصبحت تحمل بذور دمارها بداخلها؛ لأنها قوى تبني كياناتها من خلال التوسع خارج حدودها، وتستمد قوتها من خلال السيطرة على موارد الدول الأخرى وخيراتها.

وعلى الرغم من التفوق في الآلة الحربية والجيوش التي تملكها هذه القوى إلا أنها لم تستطع الاستمرار في الحفاظ على كياناتها وتثبيت مؤسساتها الاستعمارية في البلدان التي تم استعمارها وانتهت جميعها بالتفكك والانهيار؛ حيث يروي لنا التاريخ أن جميع القوى الاستعمارية بلا استثناء كانت تنتهي نهاية واحدة –وهي الانهيار بسبب– السعي المحموم للتوسع من خلال السيطرة على مزيد من الأراضي ومصادرة خيراتها من أجل دعم مشروعها التوسعي.

وكان (إدوارد جيبون) قد أشار في كتابه (تأريخ ضعف وانهيار الإمبراطورية الرومانية) (١٧٧٦–٨٨) إلى أن من أهم المخاطر التي تواجه مستقبل الإمبراطوريات وتهدد كياناتها هو التوسع الجغرافي من خلال السيطرة على أراضي الدول الأخرى؛ لما يترتب عليه من التزامات ومتطلبات مُرهقة تأخذ شكل ضغوط اقتصادية وسياسية تساهم بشكل مباشر في زعزعة

الإمبراطوريات وتقود بالنهاية إلى انهيارها المؤكد[١].

وفي السياق نفسه تطرق المؤرخ (نيل فيرجسون) بالإشارة إلى الولايات المتحدة الأمريكية -باعتبارها إمبراطورية العصر- إلى أن جميع الإمبراطوريات -مهما كانت قوتها ومتانة اقتصادها- تتجه إلى مصير محتوم واحد ألا وهو الانهيار والسقوط.

هذا السقوط -وحسب ما يراه المؤرخ- يكون بشكل فجائى -على عكس ما يراه المؤرخون التأريخيون- بسبب الضغوط المالية والاقتصادية التى تقع على الإمبراطورية، وتتمثل هذه الضغوط في الأزمات والعجز المالي الذي يتطلبه هذا التوسع؛ وكذلك بسبب الإنفاق المالي الكبير على التسليح [٢].

بدأت أوربا بتنفيذ مشروعها الاستعماري من خلال إرسال سفنها وماكيناتها الحربية إلى بلدان وجزر العالم الأخرى تحت ذريعة التواصل مع شعوب العالم من أجل التجارة والرغبة الإنسانية في التعايش والتواصل لنشر المحبة والأخوة والحضارة.

واعتمدت بالدرجة الأساس في مشروعها الاستيطاني على شعار الإيثار والرغبة الإنسانية والدينية في تخليص الشعوب من براثن التخلف والجهل والوثنية وهدايتها إلى طريق الله والخلاص ونور الحضارة؛ ولهذا استطاعت القوى الأوربية التي تبنت هذا المشروع من كسب ود كثير من الشعوب التي رحبت بها، وسمحت لسفنها من الرسو في موانئها ودخول أراضيها.

كانت اللغة التي استخدمتها هذه القوى في التواصل مع الشعوب المستهدفة هي لغة الإيثار والمحبة، ونشر الحضارة والمعرفة مما حدا بالسكان المحليين إلى الترحيب بالقادم الجديد؛ رغبةً منهم في مد جسور التواصل والتعارف بين شعوب المعمورة.

استطاع الاستعمار -وبسبب حُسن استقبال السكان المحليين- من نشر وتعزيز مؤسسته الاستعمارية من أجل نهب خيرات هذه الشعوب ومصادرتها ليتم شحنها إلى البلد الأم من أجل تعزيز اقتصاده، ومن أجل التجهيز لمزيد من الحملات العسكرية الاستعمارية

---

(1) Edward Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire: Vol.1. New York: Everyman's Library, 1993.

(2) Nail Ferguson “Complexity and Collapse” February 26, 2010 "Foreign Affairs" - March/April 2010 edition. http://www.foreignaffairs.com/articles/65987/niall-ferguson/complexity-andcollapse.

إلى بلدان وجزر أُخرى.

طبعًا لم يمض وقت طويل حتى توضح الأمر وبانت حقيقة هذه الحملات الأجنبية والهدف من ورائها، فما كان من السكان المحليين إلا أن استنفروا كل طاقاتهم وقدراتهم من أجل المقاومة وطرد المحتل ومهما كانت التضحيات، هنا بدأت هذه الحملات بالكشف عن حقيقة مشروعها الاستعماري؛ حيث بدأت باستخدام القوة المفرطة والعنف غير المسبوق من أجل إبادة السكان المحليين الذين كانوا ينادون بالحرية والتحرر من الوجود الأجنبي على أراضيهم.

وعلى أية حال: فإن لجوء القوى الاستعمارية إلى استخدام القوة والعنف المفرط من أجل تشريد هؤلاء السكان -وفي حالات كثيرة إبادتهم- لم يثن إصرار هؤلاء السكان وعزيمتهم على المقاومة والصمود -رغم ضعف قدراتهم العسكرية والبشرية مقارنة بقدرات الاستعمار- واستطاعت هذه المقاومة الشعبية في نهاية الأمر أن تفرض إرادتها وتجبر الكيانات الاستعمارية على الرحيل والانسحاب من المستعمرات.

إن استخدام الاستعمار للعنف المفرط للإبادة والتشريد ومصادرة ممتلكات الشعوب لم يفشل فقط في قمع وقتل الروح الثورية عند هذه الشعوب، بل على العكس تمامًا خلق فيها قوة ردع عظيمة، لا يمكن حتى للآلة الحربية المهولة للاستعمار من السيطرة عليها؛ ليس هذا فحسب؛ بل إن سياسة القوى الاستعمارية في استخدام العنف بكل أشكاله ضد الشعوب كانت قد حولت هذه الشعوب إلى قنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر وتدمر في أية لحظة وتحرق الأرض تحت أقدام المحتل.

يقول (فرانتز فانون) -في معرض وصفه للغضب والروح الانتقامية المتأججة عند السكان المحليين ضد المستعمِر-: "بالطبع إن كم الانتهاكات التي قام بها المستعمِر ضد السكان المحليين -والتي لا يمكن حصرها- كانت قد أضافت عاملًا نفسيًّا إلى نضال السكان المحليين ضد المستعمِر، هذا العامل كان قد خلق سببًا آخر للكره، وأعطى للسكان المحليين مبررًا آخر للخروج والبحث عن المستعمِر أينما كان لقتله"[١].

لم تكن القوة المفرطة والعنف هما السلاح الوحيد الذي لم يدخر الاستعمار وسعًا في استخدامه من أجل تثبيت ركائز حكمه ووجوده في البلدان التي استهدفها، وإنما كان هنالك

(1) Frantz Fanon, The Wretched of the World, trans. Richard Philcox (New York: Grove Press, 2004).

سلاح آخر لا يقل فعاليةً وتأثيرًا –وهو سلاح اللغة والإقناع.

استخدم الاستعمار مفهوم التباين والاختلاف بين الأجناس البشرية كمبدأ لأحداث تصنيفات طبقية لا تعتمد بالدرجة الأساس على مبدأ الاختلاف والتباين بين الأجناس البشرية، وإنما تعتمد جوهريًّا على فكرة اللاتساوي والتصنيف الطبقي بين هذه الأجناس، مؤكدًا على وجود هوة عظيمة من حيث الحضارة والمعرفة ما بين الجنس الأبيض (المستعمِر) وكل من الجنس الأسود والأصفر (جنس الشعوب التي استهدفها المشروع الاستعماري).

بدأ هذا المفهوم منذ القرن الخامس عشر عندما أقام البرتغاليون المستعمرة البرتغالية في سبته عام ١٤١٥ – والتي يعتبرها المؤرخون بداية انطلاق الاستعمار– حتى أصبح في القرن التاسع عشر مبدأً وإيمانًا راسخًا لدى الأوربيين مفاده: أن الجنس الأبيض هو الجنس المتفوق والمتحضر الوحيد على الأرض، وليس هنالك حضارة سوى حضارة الجنس الأبيض[١]، أما الشعوب من الأجناس الأخرى فهي شعوب متخلفة همجية، وتفتقر إلى القيم الإنسانية وإلى أبسط مقومات الحضارة والمعرفة، وعليه فهي شعوب غير مدركة وغير قادرة على حُكم نفسها والتحكم في غرائزها، وتحتاج إلى من يقودها ويحكمها[٢]، وطبعًا لم يكن هذا المفهوم إلا مناورة سياسية تم إعدادها بشكل متقن في دهاليز السياسة الاستعمارية ليس فقط من أجل الحط من قدر الشعوب التي لا تنتمي إلى الجنس الأبيض وتدمير ثقتها بنفسها لتجريدها من روح التحدي والمجابهة فحسب، وإنما أيضًا من أجل إيجاد مبرر وذريعة لاغتصاب أراضي هذه الشعوب ونهب خيراتها بحجة إنقاذها من براثن التخلف والجهل والوثنية.

وبسبب التفوق العسكري في العدد والعدة الذي كانت تتمتع به القوى الاستعمارية – وكذلك استخدام العنف غير المسبوق ضد الشعوب عن طريق استخدام أحدث المعدات

---

(1) See Arthur Gobineau , Essay on the Inequality of Human Races.Vol.1, quoted in Robert J. C. Young, Colonial Desire: Hybridity in Theory, Culture and Race (London and New York: Routledge, 1995).

(2) William B Cohen, “The colonized as Child: British and French Colonial Rule” African Historical Studies, Vol.3 No.2 1970. See also, Syed Hussein Alatas, The Myth of the Lazy Native: A Study of the Image of the Malays, Filipinos and Javanese from the 16th to the 20th Century and its Function in the Ideology of Colonial Capitalism (London: Frank Cass 1977.

الحربية وأكثرها فعاليةً في القتل والإبادة الجماعية- استطاعت هذه القوى أن تغرز في نفس السكان المحليين فكرة وجود هوة عظيمة بين الطرفين؛ من أجل خلق عقدة النقص والشعور بالضعف وعدم القدرة على المواجهة لكي تكون سلاحًا نفسيًّا آخر لا يقل تأثيرًا عن السلاح الفعلي لكسر روح المقاومة والتحدي عند السكان المحليين، وإجبارهم على الخضوع والاستسلام.

وعلى أية حال: فقد كانت هذه الهوة العظيمة التي لم يدخر الاستعمار جهدًا في إظهارها وتعزيزها بشتى الوسائل بينه وبين السكان المحليين -سواء كانت باستخدام اللغة أو استخدام الآلة الحربية- قد قادت إلى آثار سلبية وخطيرة، ليس فقط على السكان المحليين، وإنما -وبدرجة أكبر وأخطر- على الاستعمار نفسه، وقادت فيما بعد إلى تهاوي وانهيار أركان نظامه ومؤسساته؛ حيث إن هذه العلاقة التصنيفية والطبقية التي أوجدها المستعمِر بينه وبين السكان المحليين قد خلقت جوًّا مشحونًا بين الطرفين، وأذكت حالة الانتقام عند الثاني الذي ضاق ذرعًا بالوعود الكاذبة، واغتصاب الأرض، والتشريد والذل الذي مارسه الاستعمار ضد أبناء البلد.

وبسبب ممارسات الاستعمار هذه -وفي كثير من الحالات الإبادة- ضد السكان المحليين قام الأخيرون في إعداد العدة وتنظيم قواهم لمقاتلة المحتل وطرده من الأرض بكل الوسائل المتاحة وعلى كافة الأصعدة، متسلحين بالإيمان بمشروعية نضالهم، والتصميم على استرجاع أرضهم وهويتهم وكرامتهم؛ حيث أدرك السكان المحليون بأن الاستعمار لم يسلب الأرض ويصادر خيراتها ويشرد ويذل أبنائهم فحسب، بل سلب هويتهم وتأريخهم وثقافتهم بل لغتهم.

يقول (جورج ليمنج) واصفًا حالة التصميم والإرادة الصلبة عند أبناء هاييتي في ثورتهم ضد المستعمرين البيض الذي كانوا قد سلبوا أرضهم واستعبدوهم دهرًا من الزمن:

"قاتل أبناء هاييتي المستعمِر بكل شيء كانت تصل له أيديهم، مثل: العصي، القناني، قطع الحديد، وكل شيء ممكن أن يحدث ضررًا في المستعمِر على الرغم من أن الجياد التي بحوزتهم كانت إما هرِمة أو جائعة، كانت هذه حالة جيش الثوار العبيد الذين كان لزامًا عليهم أن يدفعوا ثمن هذا من دمهم في ليلة الثورة وهم في العراء، لكنهم كانوا متسلحين بالإرادة والعزيمة التي جسدوها في أغانيهم[١].

([1]) George Lamming, The Pleasures of Exile (Michigan: Ann Arbor Paperbacks, 1992).

من المعروف أن الاستعمار ظاهرة تعتمد أساسًا على اغتصاب أراضي البلدان الأخرى واستغلال مواردها الطبيعية والبشرية من خلال بسط السيطرة القسرية باستخدام القوة والعنف التي تتمثل في تشريد الشعوب وإبادتهم.

ومما لاشك فيه: أن تأثير هذه الظاهرة على الشعوب المستعمَرة كان مأساويًّا وكارثيًّا، لكن هذا التأثير لم يكن مقتصرًا على هذه الشعوب، بل كان -وربما بدرجة أعظم- على القوى الاستعمارية نفسها؛ حيث إن هذه القوى -وبسبب ممارساتها الوحشية واللجوء إلى العنف المفرط ضد السكان المحليين- لم تبرهن فقط للعالم عن مدى زيف ادعاءاتها وكذب وعودها بأنها دول متحضرة تحترم الإنسانية وتهدف إلى نشر نور الحضارة والمعرفة لشعوب الأرض، وإنما أضعفت قوتها وقدراتها بالاندفاع إلى مراكز بعيدة عن حدودها، وأوجدت لنفسها خصومًا كثيرين، يحاولون بشتى الوسائل إضعافها وهدم أركان مؤسساتها الاستيطانية، فالمؤسسة الاستعمارية -سواء كانت بالمركز الأم أو بالمستعمرات البعيدة- لم تكن يومًا آمنة، وكانت تعيش حالة تهديد مستمرة بسبب ممارساتها العدوانية وزيف ادعاءاتها ووعودها.

إن المستعمِر الذي اختار لنفسه أن يقيم كيانًا طفيليًا نفعيًا يعتمد على الاغتصاب والعنف والقتل وتشريد الآخر؛ فإنه بهذا قد اختار لنفسه حياةً غير آمنة ومهددة، يشوبها التوجس والقلق والخوف من المجهول في أرض غريبة يجهل عنها وعن أبنائها الكثير، وهكذا تصبح ظاهرة الاستعمار بالنسبة للمستعمِر ظاهرة مَرَضية عطبية تقوض كيانه، وتقض مضجعه، وتقوده إلى حالة من الخوف المزمن، والعصاب الذهاني التي ربما لا يستطيع علاجها أو التخلص من آثارها النفسية العطبية حتى بعد العودة إلى بلده الأم.

ليس من الخطأ الاعتراف بأن القوى الاستعمارية -وعبر التاريخ- كانت تمتلك من مقومات القوة، مثل القوة البشرية والتفوق في الآلة الحربية ما يفوق بكثير تلك التي كانت تملكه الشعوب التي كانت هدفًا للحملات الاستعمارية، هذا التفوق في العدد والعدة جعل موازين القوى العسكرية تميل لصالح الدول الاستعمارية بداية، واكسبها قوة دفع كبيرة استطاعت من خلالها أن تجد لها موطئ قدم في البلدان المستهدَفة، هذا التقدم والتفوق في الآلة الحربية كان قد ساهم وبشكل كبير في مساعدة القوى الاستعمارية على المضي قدمًا في المشروع الاستعماري وتوسيع رقعته من أجل السيطرة على مواردها الطبيعية ومصادر الطاقة الأجنبية لاستغلالها وتسخيرها لإدامة وتوسيع المشروع الاستعماري.

ومما لا شك فيه أن هذا التوسع لم يكن دون عواقب وخيمة، ليس فقط على الدول التي كانت هدفًا للاستعمار، وإنما كانت بالدرجة الأساس على الاستعمار على الساحة

المحلية والدولية معًا.

يصف (آدم سميث) في كتابه (ثروات الأمم) الآثار السلبية المترتبة على إقامة المستعمرات التي لا تقود فقط إلى نشوب حروب ومواجهات عسكرية تكلف الدول التي تقيم مستعمرات خارج أراضيها خسائر باهظة، وإنما تقود أيضًا إلى خلق بؤر للفساد والتآكل بسبب العبء الثقيل التي تسببها إقامة هذه المستعمرات على هذه الدول:

"إن مسألة تخلي بريطانيا العظمى طواعية عن جميع مستعمراتها وترك لها حرية انتخاب من تراه مناسبًا من أبنائها لرعاية شؤونها وسن القوانين التي تراها مناسبة لها وإعلان حالة الحرب أو السلم بما يتناسب مع مصالحها هو أمر مهم، ولابد أن لا يتم تبنيه في المستقبل من قبل أي أمة في العالم، فما من أمة كانت قد تخلت طواعية عن مستعمراتها رغم الصعوبات والخسائر التي تفرضها إقامة مثل هذه المستعمرات، ورغم قلة الموارد الطبيعية الواردة منها، والخسائر المرافقة معها، مثل هذه التضحيات -على الرغم من أنها غالبًا ما قد تكون بحجم المصالح- تكون دائمًا موضع فخر لكل أمة، ولكنها أيضًا -وبتبعات أعظم- ما تكون دائمًا في تناقض مع المصلحة الخاصة للطرف الذي يسيطر على المستعمرة، وبهذا يكون قد خسر الاستفادة من كثير من الأماكن ذات المنفعة، وغير المضطربة التي يمكن الاستفادة منها، وكذلك من فرص الحصول على الموارد التي لن يستطيع الحصول عليها من خلال السيطرة على أماكن مضطربة وأماكن لا تدر منفعة، وعليه فلن يكون بإمكان أحد -حتى لأكثر المتحمسين- أن يتبنى هذه الفكرة أو يأمل في إيجاد من تبنى هذه الفكرة من قبل"[1].

إن التكاليف المتزايدة التي يتطلبها المشروع التوسعي وإقامة المستعمرات في أماكن بعيدة عن البلد الأم يقود إلى تبديد الموارد البشرية والمادية للبلدان التي تنتهج هذا المشروع وإضعاف قوتها، هذا الأمر يقود بالنتيجة إلى تبعات اقتصادية وعوامل تهدد اقتصاد هذه الدول، إضافة إلى خلق موجة من السخط والانتقادات المحلية ضد حكومات هذه البلدان التي تبدأ بالمطالبة بإسقاط هذه الحكومات ونبذ سياساتها؛ مما يخلق جبهة ضغط أخرى تساهم في ضعضعة النظام الاستعماري وتقوض استقراره، أما في المستعمرات -والتي تم إنشاؤها على الأراضي التي تم الاستيلاء عليها بقوة السلاح من السكان المحليين بعد طردهم ومصادرة ممتلكاتهم أو إبادتهم- تبدأ مطالب السكان المحليين التي تنادي بالتحرر وحق تقرير المصير بالتصاعد، وتأخذ شكلًا من أشكال التصدي والعنف الذي يتنامى، ويبدأ بتهديد استقرار الاستعمار

(1) Adam Smith, The Wealth of Nations, vol. 2 (London: J. M. Dent & Son Ltd, 1958).

ويقوض مؤسساته، هنا تضع القوى الاستعمارية نفسها في المواجه مع جبهات عدة تحاول جميعها النيل منها وزعزعة استقرارها، وتتمثل الأولى: في الشعوب التي ترزح تحت نير الاحتلال وتحاول التخلص منه بشتى الوسائل، والثانية: في القوى الاستعمارية الأخرى التي تتنافس مع بعضها البعض في الحصول على أراضٍ جديدة لإدامة مشروعها الاستعماري، أما الثالثة: فتتمثل في الجبهة الداخلية التي تبدأ بالمطالبة بإنهاء كل أشكال الهيمنة التي تكبد البلاد خسائر بشرية ومادية كبيرة.

إن أي دراسة تحليلية لتاريخ الاستعمار والمشروع الإمبريالي –ومنذ حملة كولومبوس لما يسمى باكتشاف العالم الجديد في عام ١٤٩٢م التي يشوبها الكثير من الشكوك[١]– تقودنا إلى كثير من التساؤلات، وتدعو إلى مزيد من التحقق والتحقيق في الشعارات التي كانت القوى الاستعمارية تستخدمها في تواصلها مع الشعوب التي كانت هدفًا للحملات الاستعمارية، كانت جميع هذه الحملات تستخدم شعار نشر الحضارة والقيم الإنسانية النبيلة إلى شعوب الأرض أينما كانوا، وتدعي أنها عبرت البحار مدفوعة بمبدأ الإيثار، والسعي الإنساني، البحث من أجل الأخذ بيد الشعوب الأخرى نحو التحضر والحرية والخلاص.

طبعًا لم تكن هذه الشعارات إلا مناورة لغوية سياسية، الغرض منها كسب ود الشعوب وترحيبهم لكي تستطيع سفن المستعمِر من الرسو في موانئ الدول الأخرى، والسيطرة على خيراتها دون مقاومة أو خسائر، هذه المناورة –والتي اتخذت من استخدام لغة المحبة والخير ومساعدة الشعوب الأخرى– لم تكن إلا "فكرة عنصرية أو نفاقًا"[٢]؛ لأنها كانت مناورة تعتمد بالدرجة الأساس على اللغة، لكي تخفي وراءها مخططًا استيطانيًّا استعماريًّا نفعيًّا كان قد تم إعداده بشكل مُحكم في دهاليز السياسة التوسعية للاستعمار من أجل السيطرة على أراضٍ وخيرات دول أخرى تبعد آلاف الأميال، فهل يمكن لأولئك –الذين يتبنون وجهة النظر العنصرية، ويؤمنون وبشكل علني بفكرة التقسيمات الطبقية الهرمية للأجناس البشرية– أن يكونوا قادرين على الحس الإنساني وتبني فكرة الإيثار؟ يقول (ميشيل دي كونيو) وهو أحد المغامرين الذين رافقوا كولومبس في رحلته الثانية إلى العالم الجديد واصفًا الطريقة التي

(1) See Gavin Menzies, 1434: The Year A Magnificent Chinese Fleet Sailed to Italy and Ignited the Renaissance (London: Harper Collins, 2008). Menzies mentions that Columbus saw maps of America 18 years before he set for the New World.

(2) Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism (New York: Harcourt, Brace & World, Inc, 1966).

تعامل بها كولومبس ورجاله مع السكان المحليين للعالم الجديد:

"بتاريخ السابع عشر من شهر فبراير عام ١٤٩٢ كنا قد بدأنا استعداداتنا من أجل العودة إلى إسبانيا، وكنا قد جمعنا عددًا من السكان المحليين من الرجال والنساء لكي نختار بعضًا منهم لأخذه معنا، أجبرنا (٥٥٠) فرد ممن كانوا بصحة جيدة إلى الصعود إلى السفينة، وبعد أن حُمل الجميع في السفينة لم يتبق غير (٤٠٠) فرد على الساحل فأخبرناهم بأنهم أحرار في العودة إلى بيوتهم أو الذهاب إلى أي مكان يريدونه، ومن شدة خوفهم من أننا قد نغير رأينا ونجبر البقية للصعود إلى السفينة، فرّ الجميع مذعورين، وكان من بينهم أمهات كن يحملن أطفالًا رضع على صدورهن، فلم يكن منهن إلا أن رمين أطفالهن على الأرض ولذن بالفرار مذعورات من شدة الخوف"[١].

في السياق نفسه يكتب (هوارد زن) في كتاب (تاريخ شعب الولايات المتحدة: من عام ١٤٩٢ وحتى الحاضر) واصفًا الأفعال الوحشية واللاإنسانية التي قام بها كولومبس والأسبان ضد هنود أمريكا:

"في الكتاب الثاني من كتاب (تاريخ الأنديز) للمؤلف (لاس كاساس) يخبرنا (لاس كاساس) عن الطريقة التي كان الأسبان يعاملون فيها الهنود، كان الرجال من السكان الأصليين يُرسلون إلى المناجم التي تبعد أميال عدة، أما الزوجات فيُجبرن على العمل في المزارع من حفر وتهيئة الأرض من أجل زرع نبات الكسافا، ولم يكن يُسمح للرجال بلقاء زوجاتهم إلا مرة واحدة كل ثمانية أو عشرة أشهر، وطبعًا يكون كلًا من الزوج والزوجة متعبين، ولا تتم عملية المعاشرة الزوجية فيتوقفا عن الإنجاب، أما بالنسبة للأطفال فإنهم كانوا يموتون مبكرًا بسبب عدم توفر الحليب في صدر الأم بسبب الإجهاد المفرط وقلة الطعام، ولهذا السبب، .... مات أكثر من ٧٠٠٠ طفل في غضون ثلاثة أشهر، وقام بعض الأمهات بإغراق أطفالهن نتيجة حالة اليأس العميق التي كن يشعرن بها، هذه كانت حالة السكان المحليين؛ حيث إن الأزواج يموتون في المناجم، والزوجات يمتن في العمل، والأطفال يموتون بسبب نقص الحليب؛ وبهذا تتحول البلاد –وفي وقت قصير– إلى أرضٍ يباب خالية من السكان بعد أن كانت أرض كبيرة وخصبة، كانت عيناي قد شهدت كل هذه الأحداث

(1) George E. Tinke and Mark Freeland, "Thief, Slave Trader, Murderer: Christopher Columbus and Caribbean Population Decline," Wicazo Sa Review, Voll.23, no. 1 (spring 2008). < http://muse.jhu.edu >.

التي لا تمت إلى الجنس البشري بأي صلة حيث أجد نفسي أرتعش وأنا أكتب[١].

هذا هو فِكر الحملات التي جاءت بسفنها عبر البحار، تحمل شعار المهمة المقدسة لنشر الحضارة والهداية إلى شعوب المعمورة، حملات كان الهدف منها السيطرة على الشعوب وسرقة ثرواتها، واستعباد أهلها، وإبادة من يحاول المقاومة ورفض الهيمنة الأجنبية، هذه هي ممارسات من كانوا يدعون الحضارة والتحضر ومبدأ الإيثار، فهل يمكن أن تكون مثل هذه الممارسات مظهرًا من مظاهر التحضر والحرية والإنسانية؟ ولعل خير مثال يعكس لاإنسانية الدول الاستعمارية وهمجيتها ذلك الذي نقرأه من خلال كتابات المؤلف التأريخي (نيل فيرغسون) حيث يقول واصفًا العنف المفرط والإبادة الجماعية التي كان الاستعمار البلجيكي في الكونغو قد قام بها ضد السكان المحليين إبان الحرب العالمية الأولى:

كان الحكم البلجيكي في الكونغو قبل الحرب العالمية الأولى مثلًا حيًّا من أمثلة انتهاك حقوق الإنسان؛ حيث تم إنشاء الجمعية العالمية لزراعة المطاط، وكذلك مد السكة الحديد من خلال مبدأ السخرة وإجبار السكان المحليين على العمل دون مقابل، وكانت جميع أرباح هذه المؤسسات تذهب إلى جيوب الملك (ليوبولد الثاني)، كانت هذه حالة الطمع والجشع التي يتميز بها الحكم البلجيكي في الكونغو، وبسبب سياسة القتل والتجويع التي مارسها البلجيكيون في الكونغو إضافة إلى انتشار الأمراض وانخفاض معدل الخصوبة لقي أكثر من عشرة ملايين فرد من السكان المحليين حتفهم؛ أي ما يعادل نصف عدد السكان[٢].

إن جميع القوى الاستعمارية –وعبر التاريخ– لم تحمل إلى الشعوب التي كانت تستهدفها غير الدمار والخراب؛ لأن هذه القوى لم تكن إلا عبارة عن كيانات طفيلية يعتمد وجودها على مبدأ انتهاك حقوق الإنسان وحق تقرير المصير وإبادة الشعوب ومصادرة مواردها وخيراتها، ولم تعبر سفن هذه القوى البحار الشاسعة من أجل نشر الحضارة والحرية والعدل للشعوب الأخرى كما كانت تدعي، بل كانت حملات مسلحة ومنظمة، كان الهدف منها السيطرة على موارد الدول الأخرى، حتى وإن تطلب الأمر إبادة هذه الشعوب؛ إذًا: كانت هذه الحملات رمزًا للدمار والهمجية والبربرية؛ لأنها سعت –وبشكل منظم– إلى إبادة الجنس البشري من أجل مصالح نفعية، هذه المصالح لم تكن فقط بعيدة عن قيم العدالة

(1) Howard Zinn, A People's History of the United States: 1492 – Present (New York: Harper Perennial, 2003).

(2) Niall Ferguson, Empire: The Rise and Demise of the British World Order and the Lessons for Global Power (New York: Basic Books, 2004).

الإنسانية والأخلاقية، بل سعت إلى إلغاء هذه القيم واستباحتها، لكي يتسنى للمستعمِر احتكار هذه المصالح لنفسه وحرمان أهلها الأصليين من الانتفاع بها، ويصف لنا (اليكس دو تو كوفيل) الفرق بين الإنسان المتحضر وغير المتحضر -في معرض حديثه عن الحضارة؛ حيث يقول: "كلما أمعنت التأمل والتفكير في الأمر أجد أن الفرق ما بين الإنسان المتحضر وغير المتحضر فيما يخص العدالة الإنسانية هو أن الأول يناضل من أجلها، بينما الثاني يستبيحها" [١]، وعليه فإن مفاهيم العدالة والحرية والكرامة والملكية الخاصة لم تكن يومًا من مفردات قواميس الكيان الاستعماري، ولم يعترف بها أي كيان استعماري؛ لأن المشروع والفكر الاستعماري يقوم أساسًا على السيطرة على الشعوب وقمعها وإلغاء وجودها وإخراس صوتها، وبتطبيق وصف (اليكس دو تو كوفيل) لمفهوم الفرق ما بين الإنسان المتحضر من غيره على الظاهرة الاستعمارية، يتبين لنا من هو المتحضر فعليًّا من غير المتحضر، هذا المفهوم يتضح أكثر فأكثر بقراءة كتابات (كارل جوستاف يونج) النفسية الذي يتطرق إلى وصف الظاهرة الاستعمارية، ويعطي تحليلًا نفسيًّا لطبيعة سلوكية المنهج الاستعماري؛ حيث يقول:

"نحن نعتقد أن الظاهرة الاستعمارية -أو ما يسمى بالحملات لتخليص الشعوب الوثنية من الجهل ونشر الحضارة- تمتلك وجهًا آخر، ألا وهو وجه الطيور الجارحة التي تحمل في ثناياها نوايا همجية، والتي تبحث عن الطريدة، حتى وإن كانت تبعد عنها أميالًا، الظاهرة الاستعمارية لها وجه آخر ألا وهو وجه القرصنة والخروج عن القانون، صورة هذه الكائنات المفترسة التي تقبع في دواخلنا ما هي إلا تمثيلًا نفسيًّا لطبيعتنا الحقيقية[٢].

من هنا تتضح حالة التناقض والتخبط في المخطط الاستعماري الذي يقود إلى تداعيات تساهم -وبشكل كبير- في تقويض وتآكل هياكل المؤسسة الاستعمارية، ومن المفارقات نجد أن إصرار الاستعمار على استخدام العنف المفرط من أجل إخضاع السكان المحليين واستعبادهم من أجل ضمان انصياعهم وانقيادهم لأوامره لم يحقق أي نجاح بهذا الخصوص، بل على العكس تمامًا؛ حيث إن سياسة العنف والتنكيل التي ينتهجها الاستعمار كانت دائمًا ما تقود إلى تأجيج حالة الغضب والكراهية، وتوسيع حالة العِداء عند السكان

(1) Quoted in Cheryl B. Welch, "Colonial Violence and the Rhetoric of Evasion: Tocqueville on Algeria," Political Theory, Vol. 31, no. 2 (April 2003), pp. 235 - 264. < www.jstor.org.

(2) C. G. Jung, Memories, Dreams, Reflections, trans. Richard and Clara Winston (New York: Vintage Books, 1989).

المحليين ضد المستعمِر وكل من يمثله، هذا التناقض والتضارب في سلوكيات الاستعمار – والذي دائمًا ما يقود إلى نتائج عكسية– يصبح السمة الأساس في سلوك ومنهج الاستعمار، ويقود دائمًا إلى نتائج ذات عواقب وخيمة على المؤسسة الاستعمارية ومستقبلها، إن الاستخدام المفرط للقوة والعنف ضد الشعوب من أجل إلغائها وتهميشها دائمًا ما يقود إلى ردة فعل عنيفة من قبل الشعوب من أجل تعزيز الهوية المحلية والحالة الوطنية التي يحاول الاستعمار إلغاءها وطمسها.

وعليه نجد أن محاولات الاستعمار المستمرة لإلغاء الهوية المحلية لا تصبح محاولات يائسة فقط، وإنما تعطي مزيدًا من القوة والدفع للمقاومة الشعبية التي تجد في ممارسات الاستعمار هذه نقطة انطلاقة مستمرة ومتجددة للتصميم على مواصلة الكفاح والنضال، في مقدمته لكتاب (المستعمِر والمستعمَر) للكاتب (ألبرت ميمي) يكتب (جون بوول سارتر) في هذا السياق:

تخلق الظاهرة الاستعمارية في السكان المحليين حالة من الوطنية العالية، وبسبب العنف والقوة التي تتطلبها الظاهرة الاستعمارية، يتم تجريد السكان المحليين من كل الحقوق حتى حق العيش وتبدأ حالتهم تسوء يومًا بعد يوم ولا يبق لديهم غير الموت، عندما لا يجد السكان المحليين من مستعمريهم إلا البؤس والتشريد عندها لن يبق لديهم ما يخسرونه عند ذلك تصبح حالة البؤس التي يعيشونها هي دافعهم وقوتهم[١].

حالة التخبط والتناقض في سلوكيات القوى الاستعمارية هذه كان قد تطرق إليها الكثير من الكُتاب والمفكرين، وفي معظم كتاباتهم حول الظاهرة الاستعمارية، ولعل خير ما كُتب بهذا الخصوص ما جاء في كتابات (ايمي سيزر) الذي يكتب منتقدًا مفهوم الحضارة التي ينادي بها الاستعمار؛ حيث يؤكد الكاتب على أن الحضارة التي ينادي بها الاستعمار هي حضارة مبنية على أساس وجود علاقة من القهر والاستبداد ما بين المستعمِر والمستعمَر؛ يكون فيها الأول هو المهيمن والمستبد، والثاني هو العبد المستغَل صاحب الإرادة المسلوبة، وحسب ما يراه الكاتب؛ فإن الحضارة التي تدعيها وتنادي بها القوى الاستعمارية هي حضارة "متفسخة" ، "ميتة" و"متهاوية"؛ لأنها حضارة تقود إلى مشكلتين رئيسيتين لا تستطيع القوى الاستعمارية أن تجد الحلول لها ألا وهما المشكلة الاستعمارية والمشكلة

(1) Jean-Paul Sartre “Introduction” to Albert Memmie’s The Colonizer and the Colonized, tans. Howard Greenfeld (London: Earthscan 2003).

البروليتاريلية أو ما يسمى: بمشكلة الطبقات العاملة؛ حيث يكتب:

"إن الحضارة التي تبرهن على أنها غير قادرة على إيجاد الحلول للمشكلات التي توجدها هي حضارة متفسخة، الحضارة التي تغض الطرف عن أهم مشكلاتها ما هي إلا حضارة عليلة، إن الحضارة التي تستخدم من المبادئ كمادة للزيف والخديعة هي حضارة ميتة، إن الحضارة الأوربية –أو ما يسمى بالحضارة الغربية كما كان يطلق عليها لقرنين من الزمن من الحكم البرجوازي– هي حضارة غير قادرة على حل أهم مشكلتين كانت هذه الحضارة قد أوجدتهما، وهما المشكلة الاستعمارية ومشكلة الطبقات العاملة، أوربا –وبسبب سلوكها– لم تستطع أن تبرر موقفها لا من الجانب المنطقي ولا من الجانب الأخلاقي، ولهذا نجدها دائمًا تختبئ خلف قناع النفاق، والذي يضعف موقفها لأنه قناع مكشوف، ولا يمكن أن يخدع الآخرين، ولهذا تصبح أوربا كيانًا عليلًا[١].

ويذهب الكاتب (ايمي سيزر) في نقاشه حول الظاهرة الاستعمارية إلى أبعد من ذلك؛ حيث يتطرق في نقاشه إلى أن هذه الظاهرة هي ظاهرة همجية بربرية تسعى إلى تجريد الإنسان (المستعمِر بالدرجة الأساس) من إنسانيته؛ لأنها ظاهرة تتطلب أن يتخذ من يدعو لها ويعمل بها موقفًا دكتاتوريًا استبداديًّا تجاه الآخر الذي يتم إخضاعه وتهميش دوره وإلغاء وجوده وآدميته، وبالنتيجة تنعكس هذه الحالة على النفس التي تمارس الاستبداد والدكتاتورية، وبنفس المضمون يصف لنا الكاتب الإنجليزي (جورج أرول) انعكاسات الدور الدكتاتوري والاستبدادي الذي يمارسه المستعمِر الأبيض تجاه الشعوب التي كانت ترزح تحت نير الاحتلال، وما هي النتائج المترتبة عليه:

عندما يتحول الرجل الأبيض إلى طاغية، فإنه بهذا لا يدمر إلا حريته؛ لأنه يصبح مجرد دمية، وكيان أجوف يؤدي دورًا مفروضًا عليه؛ حيث يتحول إلى ذلك الفرد الذي يقضي حياته من أجل أن يُحدث تأثيرًا في السكان المحليين، ويؤدي دورًا ربما لا يريده هو، بل ما يتوقعه السكان المحليين منه أن يؤديه، وبهذا يلجأ إلى وضع قناع على وجهه حتى يتلاءم وجهه عليه[٢].

---

(1) Aimé Césaire, Discourse on Colonialism, trans. Joan Pinkham (New York: Monthly Review Press, 2000).

(2) George Orwel, A Collection of Essays. (San Diego: Harcourt Brace Jovanovich, 1946).

أما الكاتب الفرنسي (ألبرت ميمي) فيرى: أن الظاهرة الاستعمارية ما هي إلا شكل من أشكال الفاشية؛ لأنها تستخدم العنصرية والإرهاب كأدوات يتم من خلالها إخضاع الآخر بوحشية وإجباره على الانصياع التام لتعاليمها، إن الظاهرة الاستعمارية بالنسبة للكاتب (ألبرت ميمي) هي عبارة عن ظاهرة نفعية تعتمد على اكتساب الربح والمكاسب المادية، وليست مهمة أو مشروع إنساني لتخليص الشعوب من التخلف والوثنية؛ حيث يقول: إن الظاهرة الاستعمارية ما هي إلا مصدر من مصادر الكسب المادي؛ حيث تجعل من يعمل بها "يكسب أكثر وينفق أقل"[١]، ومن أجل المحافظة والإبقاء على هذا الامتياز يلجأ المستعمِر إلى تزييف ومغالطة حقائق ممارساته القمعية والاستبدادية تجاه الشعوب، ويستطرد الكاتب في حديثه قائلًا: "يحاول المستعمِر تزييف التأريخ، يعيد صياغة القوانين، ويحاول أن يطمس الذكريات وكل شيء من الماضي من أجل أن يحول ممارسات اغتصاب حقوق الآخرين إلى عمل قانوني"[٢]؛ هذه هي طبائع الاستغلال الذي يمارسه المستعمِر ضد المستعمَر، وبكل أنواعه سواء كان ماديًّا أو جسديًّا أو أيديولوجيًّا، الاغتصاب المادي يتمثل بقيام المستعمِر باغتصاب حقوق المستعمَر بغير حق أو جسديًّا من خلال إجبار الثاني على العمل لصالح الأول دون مقابل أو لقاء مأكله ومسكنه أو أيديولوجيًّا من خلال محاولات الأول –وبشتى الوسائل– في تكميم وإخراس صوت الثاني من أجل فبركة أسطورة تفوق الجنس الأبيض على الأجناس البشرية الأخرى، في محاولة لإيجاد مسوغ قانوني للمشروع الاستعماري الأوربي والمؤسسات الطفيلية التي أوجدها، ويتضح مفهوم التصنيف الطبقي للأجناس الذي حمله المستعمِر معه في رحلاته نحو بلدان الشعوب الأخرى من خلال القراءة التحليلية لمفهوم (كولومبوس) ونظرته تجاه السكان المحليين للجزر التي وصلها؛ حيث يروي التأريخ كيف كان (كولومبوس) وجميع طاقمه ينظر إلى السكان الأصليين لأمريكا، كان (كولومبوس) يؤمن بأن السكان الأصليين لأمريكا ليس لهم دين ولا ثقافة، ولذلك استخدم مفهوم الدين كذريعة، لكي يستطيع من خلالها أن يجد مسوغًا قانونيًّا لاستباحة الأرض، وفرض قانونه عليها، وعلى جميع أبنائها، ادعى (كولومبوس) بأنه جاء إلى هذه الأرض من أجل نشر الدين المسيحي، وقيادة هؤلاء الأقوام الوثنيين إلى نور المسيحية وكلام الله، لكننا نكتشف –فيما بعد– أن ما قام به (كولومبوس) وجميع رجاله ضد السكان المحليين لم يكن

(1) Albert Memmi, The Colonizer and the Colonized, tans. Howard Greenfeld (London: Earthscan 2003).

(2) Ibid, p. 52.

له علاقة بما ادعاه؛ حيث قام بخطف أعداد كبيرة منهم ووضعهم على سفينته بالقوة لكي يعملوا كخدم وعبيد مسلوبي الإرادة والحرية وحق تقرير المصير، يقول الكاتب (كينيث سي دافيس) في معرض حديثه عن النوايا الحقيقية التي كانت قد دفعت (كولومبوس) وجميع الحملات الأوربية للإبحار بسفنهم إلى بلدان أخرى لم تكن أوربا تعرفها من قبل والنتائج التي ترتبت على قدوم هذه الحملات:

مدفوعًا بهوس البحث عن الذهب والمكاسب المادية؛ قام (كولومبوس) باستعباد السكان المحليين، وبقدوم (كولومبوس) وبقية المغامرين الأسبان إضافة إلى قدوم المستعمرين الأوربيين، بدأت أعمال الإبادة الجماعية ضد سكان أمريكا المحليين من خلال إجبار السكان المحليين على العمل تحت نظام السخرة، ومورست ضدهم أبشع العقوبات إضافة إلى إصابتهم بالأمراض الأوربية التي لم تكن معروفه لديهم ولم تكن لديهم مناعة ضدها[١] ٢٠.

أما الناقد والباحث الأدبي الأمريكي (ستيفن جرين بلات) فيكتب متحدثًا عن تأريخ رحلة (كولومبوس) لاكتشاف أمريكا –أو ما يسمى بالعالم الجديد– إن ادعاءات الأخير بخصوص عدم امتلاك السكان الأصلين لأمريكا الدين والإرث الثقافي هي ادعاءات عارية عن الصحة، وليس لها أسس من المصداقية، ولم تستطع أن تقف "أمام الأدلة الدامغة التي كانت تناقض ما تم ادعاؤه"[٢]، من خلال هذا كله يتبين لنا –وبوضوح– حجم التناقض في المنهج الاستعماري، والذي لجأ دائما إلى المغالطة وتزييف الحقائق من أجل تحقيق المصالح المادية التي يحصل عليها من خلال ممارساته في اغتصاب حقوق الآخرين، وإبادة كل من يحاول المقاومة، هذه التناقضات والمغالطات، والتي نجدها في المنهج الاستعماري –أو أي منهج يعتمد على استلاب واغتصاب حقوق الآخرين– وعلى مر العصور ما هي إلا دليل واضح على حالة هذا المنهج المرَضية وغير السوية من الناحية النفسية والسلوكية، هذه الحالة المرضية تتمثل في انقسام في الذات عند المستعمِر، وحالة من الهذيان يمكن رؤيتها بوضوح في السلوك الذي ينتهجه، واللغة التي يستخدمها مع السكان المحليين، عطبية ومرضية هذه الحالة تكمن في إن هذه الحالة لا تقود فقط إلى زعزعة وإضعاف سلطة المستعمِر، وإنما تؤدي به إلى خسارة هذه السلطة وضياعها بسبب الإصرار على ممارسة سلوك متناقض تمامًا مع الفكر

(1) Davis, Kenneth C. Don't Know Much about History: Everything you Need to Know about American History. Harper Collins: New York, 2004).

(2) Stephen Greenblatt, Marvelous Possessions: The Wonder of the New World (Chicago: Chicago University Press, 1991).

الذي يتم ادعاؤه.

إن ما يسمى بالرجل الأبيض المتحضر كان قد اندفع بسفنه وأسلحته الفتاكة إلى شواطئ تبعد آلاف الأميال بحثًا عن المكاسب المادية والموارد الطبيعية من أجل إدامة مشروعه التوسعي والاستيطاني، وما أن وصلت سفنُه إلى شواطئ هذه الأراضي البعيدة حتى بدأ بتنفيذ سياسة الإبادة والتهجير والعبودية من خلال استخدام العنف والقوة –وبشكل همجي وبربري– ضد السكان المحليين من أجل استئصالهم وإبادتهم؛ حتى يتمكن من السيطرة الكاملة على الأرض بكل مواردها وخيراتها، ما من خطوة كان المستعمِر قد اتخذها إلا وكانت تصب حصريًّا في مصلحته، ومن أجل منفعته الشخصية، أما السكان المحليين فقد تم تهميشهم وإفقارهم وحرمانهم من موارد أراضيهم؛ الأمر الذي قاد بالنتيجة إلى استنزاف الأرض بشكل تدميري، وتحويل السكان المحليين إلى عبيد يعيشون حالة فقر مدقع لا يملكون غير ما يسد رمقهم، وفي حالات أخرى تم حرمانهم، حتى مما يسد الرمق بسبب المجاعات والأمراض التي سببها جشع المستعمِر، والتي أودت بحياة الملايين من السكان المحليين، كما حدث في مجاعة مدراس في الهند (شكل ١)[١] في عام ١٨٧٦؛ حيث يروي لنا (مايك دافس) في حديثه عن جشع بريطانيا الذي كان السبب الرئيس في إحداث مجاعة مدراس والتي فتكت بالملايين من الهنود على الرغم من الفائض الكبير الذي كانت الهند تنتجه من زراعة الأرز والقمح: "على الرغم من إنتاج القمح والأرز في مناطق الهند الأخرى كان فوق المعدل مقارنة بالسنوات الثلاث الماضية إلا أن جميع هذا المحصول الزائد كان قد تم شحنه إلى بريطانيا"[٢] . ويستطرد الكاتب في حديثه عن معاناة ومأساة مجاعة مدراس:

حتى خطوط السكة الحديد التي تم إنشاؤها مؤخرًا كان التجار قد استخدموها في تعميق الموقف المأساوي للمناطق التي ضربتها المجاعة؛ حيث بدأ التجار بنقل الحبوب من المناطق المنكوبة إلى مناطق بعيدة من أجل تخزينها واحتكارها لرفع أسعارها (إضافة إلى حمايتها من ثورة المنكوبين الجياع). أما نظام نقل البرقيات فقد استخدم لجعل أسعار الحبوب في آلاف المناطق الهندية متناغمة على الرغم من المحصول الفائض في هذه المناطق، إضافة إلى ذلك فإن عدم رغبة وجدية السلطات البريطانية في تحديد أسعار الحبوب كان قد دفع الكثيرين ممن يملكون المال إلى الدخول في هذا الهرج المحموم من أجل الكسب المادي بسبب

(1) for more photos about madras famine, see: http://images.rgs.org/search_.aspx?eventID=55.

(2) See Mike Davis Late Victorian Holocausts: el Nino Famines and the Making of the Third World. Verso: London, 200).

تزايد أسعار الحبوب، وكان قد انضم إلى هذا التسابق المحموم -إلى جانب التجار التقليديين- تُجار من كل الأنواع من أجل تحقيق الكسب المادي، مثل تُجار المجوهرات والملابس، ومنهم من باع مجوهرات زوجته من أجل زيادة رأس ماله والمتاجرة بالحبوب[١].

شكل ١: مجاعة مدراس (الهند) عام ١٨٧٦

هذه هي حقيقة الخطاب والمفهوم الذي طالما كان المستعمِر يردده كلما أبحر بسفنه المحملة بكل أنواع الأسلحة الفتاكة نحو العوالم الأخرى بهدف السيطرة على مقدرات الشعوب ونهب ثرواتها، أما شعارات "إنقاذ الشعوب" و" نشر الحضارة والديمقراطية"؛ فلم تكن إلا ذرائع وحجج كانت قد استخدمتها جميع القوى الأوربية في الماضي والقوى العظمى في التاريخ الحديث لتغطية أطماعها، ولإضفاء الشرعية على الفِكر الاستعماري الذي يهدف إلى الهيمنة ونهب خيرات الشعوب الأخرى، هذا الخطاب -والذي اتخذه الاستعمار منهجًا ثابتًا في علاقته مع الشعوب الأخرى- لم يزد فقط من رقعة الخلاف والهوة بين الشرق والغرب، وإنما خلق أيضًا حالة من العِداء والتوتر بين شعوب الأرض، وتبلورت هذه الحالة لتصبح صراعات دموية مستمرة أودت بحياة الملايين من الجنس البشري، ودمرت الجزء الأعظم من خيرات الأرض ومواردها، وأعادت الإنسان إلى مجاهل البربرية وشريعة الغاب.

(1) Ibid, p. 27.

المصادر الأجنبية

1. Adam Smith, The Wealth of Nations, vol. 2 (London: J. M. Dent & Son Ltd, 958 .(

2. Aimé Césaire, Discourse on Colonialism, trans. Joan Pinkham (New York :Monthly Review Press, 2000.(

3. Albert Memmi, The Colonizer and the Colonized, tans. Howard Greenfeld) London: Earthscan 2003.(

4. C. G. Jung, Memories, Dreams, Reflections, trans. Richard and Clara Winston) New York: Vintage Books, 1989.(

5. Davis, Kenneth C. Don't Know Much about History: Everything you Need to Know about American History. Harper Collins: New York, 2004.(

6. Edward Gibbon, The Decline and Fall of the Roman Empire: Vol.1. New York: Everyman's Library, 1993.

7. Frantz Fanon, The Wretched of the World, trans. Richard Philcox (New York :Grove Press, 2004.(

8. George E. Tinke and Mark Freeland, "Thief, Slave Trader, Murderer :Christopher Columbus and Caribbean Population Decline," Wicazo Sa Review ،Voll.23, no. 1 (spring 2008 > .(http://muse.jhu.edu.<

9. George Lamming, The Pleasures of Exile (Michigan: Ann Arbor Paperbacks, 1992.(

10. George Orwel, A Collection of Essays. (San Diego: Harcourt Brace Jovanovich, .(١٩٤٦

11. Hannah Arendt, The Origins of Totalitarianism (New York: Harcourt, Brace & World, Inc, 1966.(

12. Howard Zinn, A People's History of the United States: 1492 – Present) New York: Harper Perennial, 2003.(

13. Jean-Paul Sartre “Introduction” to Albert Memmie’s The Colonizer and the Colonized, tans. Howard Greenfeld (London: Earthscan 2003.(

14. Nail Ferguson “Complexity and Collapse” February 26, 2010 "Foreign Affairs – "March/April 2010 edition. http://www.foreignaffairs.com/articles/65987/niall-ferguson/complexity-andcollapse.

15. Niall Ferguson, Empire: The Rise and Demise of the British World Order and the Lessons for Global Power (New York: Basic Books, 2004.(

16. Quoted in Cheryl B. Welch, “Colonial Violence and the Rhetoric of Evasion :Tocqueville on Algeria,” Political Theory, Vol. 31, no. 2 (April 2003), pp > .٢٦٤ – ٢٣٥.www.jstor.org<

17. See Arthur Gobineau , Essay on the Inequality of Human Races.Vol.1, quoted in Robert J. C. Young, Colonial Desire: Hybridity in Theory, Culture and Race (London and New York: Routledge, 1995.(

18. See Gavin Menzies, 1434: The Year A Magnificent Chinese Fleet Sailed to Italy and Ignited the Renaissance (London: Harper Collins, 2008). Menzies mentions that Columbus saw maps of America 18 years before he set for the New World .

19. See Mike Davis Late Victorian Holocausts: el Nino Famines and the Making of the Third World. Verso: London, 200.

20. Stephen Greenblatt, Marvelous Possessions: The Wonder of the New World) Chicago: Chicago University Press, 1991 .(

William B Cohen, "The colonized as Child :British and French Colonial Rule" African Historical Studies, Vol.3 No.2 1970. See also, Syed Hussein Alatas, The Myth of the Lazy Native: A Study of the Image of the Malays, Filipinos and Javanese from the 16th to the 20th Century and its Function in the Ideology of Colonial Capitalism (London: Frank Cass 1977 .